النظرية المهدوية ووظيفة الغيبة

2005/9/20م

الدكتور محمد شقير

يعتقد جميع المسلمين بالإمام المهدي (ع) وهو الإمام الثاني عشر من أولاد فاطمة بنت رسول اللّه (ص) ولد في الخامس عشر من شهر شعبان عام 255 هـ.ق في مدينة سامراء وقد غاب منذ ولادته ولم يزل غائباً إلى يومنا هذا وسوف يخرج في اخر الزمان ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. إن هذه النظرية المهدوية التي ترى في الإمام المهدي من سوف يحقق الإرادة الإلهية في الوصول إلى نهاية للتاريخ ذات بعد ديني؛ ترتكز على جملة من الأسس التي لا بد من الإشارة إليها وهي:

أولاً: العصمة، حيث أن الهدف من الظهور ظهور الإمام المهدي (ع) إعادة تطبيق الأطروحة الإلهية بأرقى مراتبها وتحقيق الخلافة الإلهية بأبلغ معانيها وهذا ما يتطلب فيمن سوف يتولى هذه المهمة ذلك الفعل الذي لا يتحمل مقولة التجربة والخطأ، أي لابدية العصمة في شخص الإمام المهدي (ع) بل يمكن القول إن حقيقة العصمة في فلسفتها الوظيفية ليست إلا اعطاء تلك القيمة المتقدمة لإنسانية الإنسان وتحقيق هذه الإنسانية، وهي تعني أيضاً اعطاء تلك القيمة لدور الإنسان من حيث رفع هذا الدور إلى أرقى مراتبه، إذ إن العصمة ليست ألا أوج الإنسانية التي تهدف إلى سمو الإنسان في إنسانيته ودوره وسلوكه.

ثانياً: فلسفة الخلق التي ترتبط بعبودية اللّه تعالى، هذه العبودية التي تعني في نتائجها ارتقاء الإنسان في تكامله المعنوي والروحي إلى اللّه تعالى حيث تتحول كل حياة الإنسان بكل تجلياتها إلى عبادة للّه تعالى، فتتماهى العبادة بهذا المعنى مع كل ما يقوم به الإنسان في حياته ومع كل فعل يصدر عنه أو يرجع إليه.

ثالثاً: ترتكز على هدفية الخلق من حيث تحقيق خلافة اللّه تعالى وعدم كون مسار التاريخ أمراً خارجاً عن التدبير الإلهي، بل إن الحكمة الإلهية أرادت أن تكون نهاية التاريخ بطريقة تتجلى فيها قدرة الأطروحة الإلهية على حل مشاكل كل البشرية وتصحيح مسيرها وايصالها إلى أهدافها الحقيقية. وعلى ما تقدم فإن عودة الإمام المهدي ليست إلا عودة لتلك الأطروحة في أرقى مراتبها وصورتها النقية ومضمونها

الصحيح والواقعي ليعمل على تحقيق إنسانية الإنسان وعبوديته للّه تعالى وليعمل أيضاً على إحقاق العدل ورفع الظلم والحيف من ساح البشرية.

أن حركة الإمام لن تكون محصورة في إطار مذهبي ضيق أو في إطار اقليمي أو جغرافي محدود، بل سوف تكون حركته شاملة لكل المعمورة، ولكل بني الإنسان كما هي رسالة جدّه رسول اللّه إذ يقول تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

وإذا كانت النظرية المهدوية نظرية في خلاص العالم ذات مضمون ديني فإن سؤالاً أساسياً يطرح حول الوظيفة الأصلية لغيبة الإمام، إذ ما الذي تعنيه تلك الغيبة، في حين كان بالإمكان أن يكون الظهور لا عن غيبة، فلماذا كانت الغيبة وما الهدف الأساس منها؟

هنا عندما نتحدث عن الوظيفة الأصلية أو الهدف الأساس فلأنه يمكن أن تكون هناك أهداف متعددة للغيبة، ولعل النظريات المتعددة التي حاولت تفسير الغيبة وتقديم رؤية أو أخرى لفلسفتها قد أخذ كل منها جانباً ما أو هدفاً وحاول أن يبني عليه رؤيته لحقيقة الغيبة وفلسفتها؛ بينما نحن سوف نحاول تقديم تفسير شمولي أو الوقوف عند جملة من الدلالات العامة التي ترتبط بحدث الغيبة والتي تساعد بالمقابل على تقديم رؤية شمولية لحقيقة الظهور ظهور الإمام المهدي (ع) باعتبار أن موضوعي الغيبة والظهور يرتبطان بحقيقة واحدة هي وظيفة الإمامة وبالتحديد الإمامة الخاتمة والظروف الموضوعية التي تساعد على انجاز تلك الوظيفة.

إن حقيقة الغيبة فعل إعداد لجملة من الظروف الموضوعية التي تساعد على تطبيق الأطروحة الإلهية في أرقى مراتبها وأنقى مضامينها بعد أن تصل البشرية إلى حائط مسدود في خيارها معاندة الوحي الإلهي والخيار الديني أي معاندة الأطروحة الإلهية المتمثلة في زماننا الحالي بالإمام المهدي (ع) ومحاولة الاستغناء عنها، فبعد أن تصل تلك البشرية إلى حالة من الافلاس الحضاري والخلاصي وبعد أن يتبين لها فشل خياراتها الوضعية القائمة على الابتعاد عن اللّه تعالى وتعطيل الدين الإلهي؛ هنا لا بد أن تتهيأ الظروف الموضوعية لطلب الخلاص وللإنابة إلى اللّه تعالى عندما تدرك البشرية أن لا خلاص لها من أزمتها الحضارية ومن مشاكلها المستعصية إلا بالعودة إلى اللّه تعالى، وأنه لا بد لها من اللجوء إلى الخلاص الديني لتجاوز ما تعانيه وللتغلب على ما تقاسيه.

وعليه فإن غيبة الإمام المهدي (ع) هي بمثابة تغييب مرحلي للأطروحة الإلهية في مرتبتها المعصومة بهدف انتظار نضوج الظروف المناسبة لعودتها، عودة تكنس كل تداعيات واثار الأطاريح الوضعية اللاإلهية وما خلفته من ظلم وماس وما تركته من دمار معنوي ومن حيف

اجتماعي وما سببته من فقر وجوع وفساد وانحراف عن الفطرة الإلهية وما أحدثته من هجران للقيم والأخلاق والروح ومن عبادة للمادة وتقديس لها بل ونصبها إلهاً يعبد بدلاً عن عبادة اللَّه تعالى.

أما أن عملية التمهيد لفعل الظهور الذي هو بمثابة مشروع تغييري عالمي تتم من خلال حدث الغيبة لا من خلال الانقطاع الظاهري للوجود العصموي وعدم الوجود الظاهري للمعصوم (ع) لأن غيبته لا تعني عدم وجوده ؛ فهذا ما يرتبط بفلسفة العصمة وضرورة وجودها كحاجة إنسانية ترتبط بفلسفة الخلق وتحقيق الكمال الإنساني من خلال هداية الإنسان الكامل للبشرية إلى اللَّه تعالى، هذا من جهة؛ ومن جهة ثانية فلأن الغيبة بما هي انقطاع مفاجئ عن مختلف مجالات الظهور الاجتماعي والسياسي والمادي المحسوس إنما تعبر عن موقف من البشرية التي تنكبت عن الأخذ بالخيار الإلهي وأعرضت عن الأطروحة الإلهية، أي إن الغيبة بهذه الطريقة التي حصلت إنما هي موقف أبلغ من طغيان البشرية وهجرانها للطرح الإلهي؛ هذا الموقف الذي لا بد أن يعبر عنه لاشعار البشرية بظلمها وانحرافها عن المسار الإلهي وتقصيرها تجاه تلك الأطروحة؛ فكانت غيبة الإمام بالطريقة التي حصلت فيها أبلغ تعبير عن ذلك الموقف الذي يجب أن تعي البشرية نتائجه وتداعياته.

ولذا يمكن القول أيضاً إن الغيبة كانت فعل حرمان من تلك النعمة الإلهية لتكون الغيبة عملاً هادفاً نحو تحقيق خلافة اللَّه تعالى والهدف من خلق الإنسان والكون.

لكن ذلك الموقف ليس موقفاً يراد منه اشعار البشرية بعقدة الذنب لمجرد الشعور بالذنب، بل بما يؤدي إليه هذا الموقف من وعي للظلم الذي سببته لنفسها ومن وعي للانحراف الذي أحدثته في مسيرها ليكون ذلك بمثابة دافع لمعاينة أسباب المأزق الحضاري الذي وصلت إليه، والذي يمكن تلخيصه بابتعادها عن اللَّه تعالى، وتعالي الإنسان وعدم قيامه بدوره الأساس والذي هو عبودية اللَّه تعالى بمفهومها الأشمل والأوسع.

ولذلك ينبغي أن تتحول الثقافة المهدوية من ثقافة مذهبية أو دينية خاصة إلى ثقافة كونية، ثقافة ترتبط بوعي الإنسان المعاصر ومحاولات بحثه عن حلول للمأزق الحضاري الذي تعاني منه البشرية، وللأزمات الكونية التي يعاني منها الإنسان أي يجب أن تتحول تلك الثقافة إلى ثقافة عالمية تلامس حاجات جميع البشر وتطلعاتهم والامهم وامالهم لتغذي تلك الثقافة الأمل في نفوس الشعوب المظلومة والمقهورة بالتغيير والنصر والسلام والسعادة والقدرة على التغلب على الالام والمشاكل وجميع الأزمات التي تعاني منها.

إن ابقاء جذوة الأمل بالخلاص متقدة في نفوس البشر يراد منه توظيف ذلك الأمل في فعل التمهيد والاعداد لخروج الإمام (ع) الذي يعني عودة العدل والقيم الدينية والإنسانية وعودة الإنسان إلى اللّه تعالى وإلى فطرته وإنسانيته.